خطبة صلاة الجمعة 29/ 3/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(كيف أنال حسن الخاتمة؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣].

قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**».

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة التاسعة والعشرين من سلسلة (هموم الشباب).

تحدثت الخطب السابقة: لماذا هذه السلسلة، وكيف أترك المعصية، كيف أرضي أبوي، كيف أجد عملا مناسبا، كيف لي بالزواج، ماذا أقرأ لأفهم ديني، وكيف أجمع بين الدنيا والآخرة، وكيف أجمع بين الهزل والجِد، وكيف يلين قلبي، وكيف أخدم بلدي، وكيف أسيطر على الغضب، وكيف أنجو من الفتن، وكيف أكون محبوبا، وكيف أنظم وقتي، وكيف أكتشف مواهبي وأنميها، وكيف أصير داعية إلى الإسلام، وكيف أختار تخصصي الجامعي، وكيف أنجو من الفتن، وكيف أكون محبوبا، وكيف أنظم وقتي، وكيف أكتشف مواهبي وأنميها، وكيف أصير داعية إلى الإسلام، وكيف أختار صاحبي، لم لا

يستجيب الله دعائي، ماذا أفعل ليتعافى بلدي وينهض، كيف أضبط شهواتي، كيف أكتسب الأخلاق الحسنة، وعلقت بي عادة سيئة فكيف أتخلص منها؟ وكيف أصير عالي الهمة، وكيف أعتصم من الشيطان وحيله، وكيف أساهم في تحرير فلسطين، وكيف أتعامل مع أجهزة الاتصال ومواقع التواصل، وكيف أخدم ديني.

عنوان خطبة اليوم: كيف أنال حسن الخاتمة؟

أيها الإخوة:

يقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27].

سأل سيدنا يوسف عليه السلام ربه حسن الختام فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

عن سالم أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: ادْنُ منّي أُودّعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودّعنا، فيقول: «أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ» [الترمذي].

ذَكَرَ الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة أبي الوقت السجزي قال: عالمٌ مُحدّث، كان صالحاً كثير الذكر والتهجد والبكاء من خشية الله تعالى، يقول تلميذه: لما احتُضِرَ أسندته إلى صدري، وكان مولعاً بالذكر، فدخل عليه أحدُ أصحابه فقال: يا سيدي: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» [أبو داود]، فرفع طَرْفَه إليه وتلا: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [سورة يس: 26-27]، فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب، ولم يزل يقرأ حتى ختم السورة وقال: الله، الله، الله حتى طُفِيء.

أُصِيب شابٌ بطلقٍ ناري عن طريق الخطأ، فأسرع به والداه إلى المستشفى، وفي الطريق التفت إليهما الشاب وقال: لا تخافا!! فإني ميت، إني أشم رائحة الجنة ثم نطق بالشهادتين ومات! ولما سُئِلَ عنه والده قال: كان غالباً ما يقوم الليل فيصلي ما كتب الله له، وكان يوقظ أهل البيت ليشهدوا الصلاة.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين، أن مالك بن دينار قال: دخلت على جارٍ لي وهو مريض فقلتُ: "يا فلان، عاهد الله أن تتوب عسى أن يشفيك"، قال: يا أبا يحيى هيهات، أنا ميت، ذهبتُ أعاهد كما كنتُ أعاهد، فسمعتُ قائلاً يقول من ناحية البيت: "عاهدناك مراراً فوجدناك كذوباً".

وقع حادثُ سيرٍ شديد على واحدٍ من الطرق السريعة، فوقفت سيارةٌ عابرة لتشاهد سيارة الحادثة معجونة أجزاؤها إلى بعضها البعض، يقودها شابٌ ملأت الدماء وجهه وأطرافه، اتصل المسعف بإسعاف الطرق، ثم اقترب من الشاب يحاول إنقاذه فوجده كأنه يريد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، يقول: فوقع لي أن أُذكّرَهُ بنطق الشهادة، فجعلتُ أقول قريباً من أُذنه: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"، ففاجئني بأن ردَّد مقطعاً من أُغنيةٍ ماجنةٍ تُغنى في الشوارعِ، ثم مات.

فرقٌ كبيرٌ أيها الإخوة؛ بين من يموت على هذه الحال ومنْ يموت وهو يقرأ آيَ القرآن، أو يترنم بذكر ربه، أو ينظر إلى ملائكة الرحمة تقبضه.

حسن الخاتمة: أن يُوفَّق العبد قبل موته لعمل الصالحات والطاعات فيموتَ عليها.

وضدها؛ سوء الخاتمة: وهي أن تكون وفاة الإنسان وهو مُعْرِض عن ربه، يفعل المعاصي والموبقات فيموت عليها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ»، قيل: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ» [الترمذي].

أَسبَابُ حسن الخاتمة أربعة:

أولها: الابتعاد عن المحرمات:

قال تعَالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة البقرة: 229]، وقال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» [أبو داود].

ذكر ابن القيم في الجواب الكافي أنه قيل لرجل عند الموت قل: "لا إلهَ إلا الله"، فقال: "عشَرةٌ بأحدَ عشَر"، -وكان مرابياً-.

وذكر الذهبي في كتاب الكبائر أن رجلاً كان يجالس شرَّاب الخمر، فلما حضرته الوفاة جاءه إنسان يلقنه الشهادة فقال له: "اشرب واسقني"، ثم مات.

الثاني: المحافظة على الواجبات:

كالنفقة على الزوجة والأبناء، وبر الوالدين، والصلاة والصيام، قال صلى الله عليه وسلم: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ» [البخاري].

أما مَن ترك الفرائض والواجبات وتهاون فيها فإنه يُخشى عليه من سوء الخاتمة.

ذَكَرَ ابن القيم –رحمه الله– في كتابه "الجواب الكافي"، أن أحد الناس قيل له وهو في سياق الموت: "قل: لا إله إلا الله"، فقال: "وما يغني عني وما أعرف أني صليت لله صلاة؟!"، ثم قضى ولم يقلها.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [سورة طه: 124].

ثالثها: المداومة على المستحبات:

قال تعَالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأنعام: 48]، وقال صلى الله عليه وسلم: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ» [المستدرك]، ومعلوم لديكم أن المرء يموت على ما عاش عليه.

جاء في سير أعلام النبلاء: لما أُحتُضِر عبد الرحمن بن الأسود بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: "أسفاً على الصلاة والصوم"، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات.

وفي صفة الصفوة: عن هشام بن عروة قال: كان أبي كثير الصوم، ولقد مات يوم مات وهو صائم.

وأعرف رجلاً فاضلاً قُطِعت يده فصاحبته الآلام والأوجاع طيلة حياته وبقي صابراً محتسباً، وقد أنعم الله عليه بحفظ القرآن، فكان يُقَرِّئ القرآن يعلمه الناس، حتى كان جلُّ وقته يقضيه في تعليم كتاب الله، طال مجلس الإقراء به يوماً من بعد صلاة الفجر إلى صلاة الظهر، فلما حضرت صلاة الظهر صلى مع الإمام، فلما جلس للتشهد الأخير وقرأ التحيات لله فاضت روحه إلى باريها عز وجل.

وعكسه من نسي الفرائض والمستحبات واشتغل بما يلهيه فإنه يُخشى عليه سوء الخاتمة، قال ابن القيم: أخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتُضِرَ وهو عنده، وجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، وهذا مشترٍ جيد، هذه كذا حتى قضى.

الرابع الأخير: الدعاء وحسن الظن بالله:

عن أمير المؤمنين عُمَر رضي الله عنه قال: "اللَّهمَّ ارزقني شهادة في سَبِيلك، واجعل موتي في بَلدِ رسولك"، قالت حفصة: فقلت: "أنَّى يكون هذا؟"، قال: "يأْتِيني به اللهُ إِذَا شاء"، وذكر رزين: كان

جُلُّ دعاءِ عمر: "اللَّهمَّ ارزُقني شَهَادَة في سَبيلكَ"، فكان أن كتب الله له الشهادة في المدينة المنورة كما تعلمون.

قال صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي» [البخاري].

ومن هنا كان الإمام سفيان الثوري يقول: "ما أُحب أنّ حسابي جُعل إلى والدتي، ربي خير لي من والدتي!".

عن إدريس بن عبد الله المروزي قال: "مرض أعرابي، فقيل له: "إنك تموت"، قال: "إلى أين يُذهب بي؟" قال: "إلى الله"، قال: "فما كراهتي أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه؟!".

وبعد أيها الشاب:

هذه أربعة أسباب ينال بها أحدنا حسن الخاتمة بإذن الله:

1. الابتعاد عن المحرمات.
2. المحافظة على الواجبات.
3. المداومة على المستحبات.
4. الدعاء وحسن الظن بالله.

اللهم أحسن ختامنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم اجعل خير عمرنا آخره، وخير عملنا آخره، وخير أيامنا يوم نلقاك، نلقاك وأنت راض عنا.

والحمد لله رب العالمين